□ عُلُوُّ الهمَّة في اليقين □

« اعلم يا أخي أن اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، وبه تفاضَل العارفون وفيه تنافسَ المتنافسون ، وإليه شمَّر العاملون ، وعمَلُ القوم إنما كان عليه وإشاراتُهم كلُّها إليه ، وإذا تزوَّج الصبر باليقين : وُلِد بينهما حصول الإمامة في الدين . قال الله تعالى - وبقوله يهتدي المهتدون - : ﴿ **وجعلنا منهمْ أئمةً يهدونَ بأمرِنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يُوقِنون** ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وخصَّ سبحانه أهلَ اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين ، فقال - وهو أصدق القائلين - : ﴿ **وفي الأرضِ آياتٌ للموقنين** ﴾ [الذاريات : ٢٠] .

وخصَّ أهلَ اليقين بالهدى والفلاح من بين العالَمين ، فقال : ﴿ **والذين يُؤْمنونَ بما أُنزلَ إليكَ وما أنزلَ مِنْ قبْلِكَ وبالآخرةِ همْ يُوقنونَ * أولئك على هدى من ربِّهم وأولئكَ هُمُ المُفلحون** ﴾ [البقرة : ٤ - ٥] .

وأخبر عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهلِ اليقين ، فقال تعالى : ﴿ **وإذا قيلَ إنَّ وعد الله حق والساعةُ لا ريبَ فيها قلتمْ ما ندري ما الساعةُ إنْ نظنُّ إلَّا ظنًّا وما نحنُ بمستيقنين** ﴾ [الجاثية : ٣٢] .

فاليقين روح أعمال القلوب التي هي روح أعمال الجوارح ، وهو حقيقة الصِّدِّيقية ، وهو قُطْب هذا الشأن الذي عليه مدارُه »[1] .

التوكُّل ثمَرَةُ اليقينِ :

و« التوكُّل ثمرتُه ونتيجتُه ، ولهذا حسُن اقترانُ الهدى به ؛ قال تعالى : ﴿ **فتوكَّلْ علىٰ الله إنَّكَ على الحقِّ المبين** ﴾ ، [القصص : ٧٩] . فالحقُّ هو اليقين ،

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩٧

وقالت رسُل الله : ﴿ وما لنا ألَّا نتوكَّلَ على الله وقد هدانا سُبُلَنا .. ﴾ الآية [إبراهيم : ١٢] . ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا ، وانتفى عنه كلُّ ريْب وشكٌّ وسُخْط ، وهمٌّ وغمٌّ ، فامتلأ محبَّةً لله وخوفًا منه ، ورضًا به وشكرًا له ، وتوكُّلًا عليه وإنابةً إليه ؛ فهو مادَّة جميع المقامات والحامل لها .

قال رسول الله ﷺ : « صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرُها بالبخل والأمل »[١].

وقال ﷺ : « نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلِك آخِرُها بالبخل والأمَل»[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدَّعوات لأصحابه : « اللهمَّ اقسمْ لنا مِن خشيتك ما يحولُ بيننا وبين معاصِيك ، ومن طاعتِك ما تبلِّغنا به جنتَكَ ، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصائب الدنيا ، ومتِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا ما أحييْتَنا ، واجعلْه الوارث منَّا ، واجعلْ ثأرنا على مَن ظَلَمنا ، وانصرْنا على من عادانا ، ولا تجعلْ مصيبتَنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ، ولا مبلغَ عِلْمِنا ، ولا تسلِّطْ علينا من لا يرحمنا »[٣].

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : « عليكم بالصدقِ فإنه معَ البر ، وهما في الجنة ، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور ، وهما في النار ، وسَلُوا الله المعافاة ؛ فإنه لم يُؤْتَ أحدٌ شيئًا بعدَ اليقين خيرٌ من المعافاة ، ولا تَقَاطَعوا، ولا تدابروا،

---

(١) حسن : أخرجه أحمد في « الزهد » والطبراني في « الأوسط » ، والبيهقي في « شُعب الإيمان » عن ابن عمرو ، وحسَّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم ٣٨٤٥ .

(٢) حسن : رواه ابن أبي الدنيا في « العقل وفضله واليقين » ، عن ابن عمرو ، وحسَّنه الألباني في « صحيح الجامع » رقم ٦٧٤٦ .

(٣) إسناده حسن : أخرجه الترمذي في الدعوات ، والحاكم بلفظ قريب منه ، وصحَّحه ووافقه الذهبي وأورده البغوي في « شرح السنة » وابن أبي الدنيا في اليقين ، وحسَّنه الألباني في« صحيح الجامع » رقم ١٢٧٩ ، والشيخ شعيب الأرناؤوط .

ولا تحاسدوا ، وكونوا عبادَ الله إخوانا »[١] .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : « ياحبَّذا نوم الأكياس وإفطارهم ، كيف يعيبون سهر الحمقى وصيامَهم ؟! ولَمثقال ذرَّةٍ من برٍّ ، من صاحب تقوى ويقين ، أفضل وأرجح وأعظم ، من أمثال الجبال عبادةً من المغْترين »[٢] .

قال أبو السريّ الباهليّ : « كان يُقال : الاهتمام بالعمل يُورث الفكرة ، والفكرة تُورث العِبْرة ، والعِبرة تُورث الحَزْم ، والحزم يُورث العزْم ، والعزْم يُورث اليقين ، واليقين يُورث الغِنى ، والغِنى يُورث الحبَّ ، والحبُّ يُورث اللِّقاء » .

وصحَّ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إنَّ الروح والفرَج في اليقين والرضا ، وإنَّ الغمَّ والحزن مِن الشَّكِّ والسُّخْط » .

وكان عطاء الخراساني لا يقوم من مجلسه حتى يقول : « اللهمَّ هَبْ لنا يقينًا بك حتى تهونَ علينا مصيباتُ الدنيا ، وحتى نعلم أنه لا يصيبنا إلّا ما كُتِب علينا ، ولا يأتينا من هذا الرزق إلّا ما قسَمْتَ لنا به » .

وقال بلال بن سعد: «عبادَ الرحمن، اعلموا أنكم تعملون في أيام قصار لأيَّام طِوال ، في دار زوال لدار مقام ، ودار حزن ونصَبٍ لدار نعيم وخُلدٍ ، ومَن لم يعملْ على اليقين فلا يغْترَّ » . وفي رواية : « فلا يتعنَّ » .

وقال رحمه الله : « كأنَّا قومٌ لا يعقلون ، وكأنَّا قومٌ لا يُوقنون » .

وقال رحمه الله : « عباد الرحمٰن ، أمَّا ما وكَّلكم الله به فتضيِّعونه ، وأمَّا ما تكفَّل لكم به فتطلبونه ، ما هكذا بعث الله عبادَه الموقنين . أَذَوُو عقولٍ في

---

(١) إسناده حسن : أخرجه ابن ماجه ، وأحمد في مسنده ، وابن حبان ، والبخاري في الأدب المفرد .

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص ١٧١ ، وأبو نعيم في الحلية ٢١١/١ .

طلب الدنيا ، وبُلْهٌ عمَّا خُلقتم له ؟! فكما ترجون رحمة الله بما تؤدُّون من طاعة الله عزَّ وجلَّ ، فكذلك أشفِقُوا من عذابِ الله بما تنتهكون من معاصي الله عزَّ وجلَّ »[1] .

وقال الحسن البصري : « ما رأيتُ يقينًا لا شكَّ فيه ، أشبهَ من شكٍّ لا يقين فيه ، من أمْرنا هذا » .

نعم ، كلُّنا قد أيقن بالموت ولا نرى له مستعِدًّا ، وكلُّنا قد أيقن بالجنة ولا نرى لها عاملًا ، كلُّنا قد أيقن بالنار ولا نرى لها خائفًا. أُمَّتُنا آخر الأمم ، ورسولنا ﷺ آخر الرسل ، وقد أُسرِع بخيارنا ، فما ننتظر إلَّا المعاينة ؟!

قال الجُنيد : اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغيَّر في القلب .

قال مالك بن دينار : أشهدكم أن يقيني شبكور[2] .

وقال : قد مشى رجال باليقين على الماء ، ومات بالعطش من هو أفضل منهم يقينًا .

وقال ابن عطاء : على قدْرِ قرْبهم من التقوى ، أدركوا من اليقين .

قال ابن القيم : وأصل « التقوى » مباينة النهي ، وهو مباينة النفس ، فعلى قدْر مفارقتهم النفس وصلوا إلى اليقين .

وقالوا : اليقين لا يساكن قلبًا فيه سكون إلى غير الله .

وقال السّريُّ : اليقينُ سكونك عند جولان الموارد في صدرك ، لتيقُّنك أن حركتك فيها لا تنفعك ، ولا تردُّ عنك مَقضيًّا .

وقال أبو بكر الورَّاق : اليقينُ مِلاك القلب ، وبه كمال الإيمان ، وباليقين عُرف الله ، وبالعقل عُقل عن الله .

وقال ابن خفيف : هو تحقُّق الأسرار بأحكام المغيَّبات .

وقال أبو بكر بن طاهر : العلم تعارضه الشكوك ، واليقين لا شكَّ فيه .

وقال ذو النون : اليقين يدعو إلى قِصَر الأمل ، وقِصَرُ الأمل يدعو إلى الزهد ،

---

(١) صفة الصفوة ٢١٨/٤ - ٢١٩ ، والحلية ٣٣١/٥

(٢) الشبكرة : هي العشي ، والشبكور هو الذي لا يبصر بالليل .

والزهد يُورث الحكمة ، وهي تُورث النظر في العواقب .

اليقينُ : هلْ هوَ كَسْبيٌّ ، أو مَوْهِبي ؟

قال ابن القيِّم : « واخْتُلِفَ فيه : هل هو كسبيٌّ أو موهبيٌّ ؟

فقيل : هو العلم المستودَع في القلوب . يُشير إلى أنه غير كسبيّ .

وقال سهل : « اليقين من زيادة الإيمان » . ولا ريب أن الإيمان كسبيٌّ .

والتحقيق : أنه كسبيٌّ باعتبار أسبابه ، موهبيٌّ باعتبارِ نفسه وذاته ».

اليقينُ أَوَّلُهُ المكاشَفَة ، ثمَّ المُعَاينة والمشَاهَدَة :

قال ابن القيم : « قيل : اليقين هو المكاشفة . وهو على ثلاثة أوجه : مكاشفة في الأخبار .. ومكاشفة بإظهار القدرة . ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان .

ومراد القوم بالمكاشفة : ظهور الشيء للقلب ، بحيث يصير نسبته إليه كنسبة المرئيِّ إلى العين ، فلا يبقىٰ معه شكٌّ ولا ريب أصلًا . وهذا نهاية الإيمان . وهو مقام الإحسان .

وقد يريدون بها أمرًا آخرَ ، وهو ما يراه أحدهم في برزخ بين النوم واليقظة ، عند أوائل تجرُّد الروح عن البدَن .

ومَن أشار منهم إلى غير هذين ، فقد غلط ولُبِّس عليه .

قال سهل : ابتداؤه : المكاشفة ، كما قال بعض السلف : « لو كُشِف الغطاء ما ازددتُ يقينًا » . ثم المعاينة والمشاهدة »[1] .

اليقينُ علىٰ ثلاثةِ أوْجُهٍ : يقين خَبَرٍ ، ويقين دلالةٍ ، ويقين مُشاهَدَة :

قال ابن القيم : « قال أبو بكر الوراق : اليقينُ على ثلاثةِ أوجه : يقين خبرٍ ، ويقين دلالةٍ ، ويقين مشاهدةٍ .

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ٣٩٨ ، ٣٩٩ .

يريد بيقين الخبَر : سكون القلب إلى خبَر المخبِر وتوثُّقه به .

وبيقين الدلالة : ما هو فوقه ، وهو أن يُقيم له - مع وثوقه بصدْقه- الأدلَّة الدالَّة على ما أُخبِر به .

وهذا كعامَّة أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن ؛ فإنه سبحانه - مع كونه أصدقَ الصادقين - يُقيم لعباده الأدلَّة والأمثال والبراهين على صدق أخباره ، فيحصل لهم اليقين من الوجهين ؛ من جهة الخبر ، ومن جهة الدليل ، فيرتفعون من ذلك إلى الدرجة الثالثة ، وهي : « يقين المكاشفة » ؛ بحيث يصير المخبَر به لقلوبهم كالمرئيِّ لعيونهم . فنسبة الإيمان بالغيْب حينئذٍ إلى القلب : كنسبة المرئي إلى العين ، وهذا أعلى أنواع المكاشَفَة ، وهي التي أشار إليها عامر بن عبد قيس في قوله : « لو كُشف الغطاءُ ما ازددتُ يقينًا » . وليس هذا من كلام رسول الله ﷺ ، ولا من قول عليٍّ ، كما يظنه من لا علم له بالمنقولات .

وقال بعضهم : رأيتُ الجنة والنار حقيقة . قيل له : وكيف ؟ قال : رأيتُهما بعيْني رسول الله ﷺ ، ورؤيتي لهما بعينيه : آثرُ عندي من رؤيتي لهما بعينَي ؛ فإن بصري قد يطغَى ويَزيغ ، بخلاف بصره ﷺ .

و« اليقين » يحمله على الأهوال وركوب الأخطار ، وهو يأمر بالتقدُّم دائمًا ، فإن لم يقارنْه العلم ، حَمَلَ على المعاطب .

والعلمُ يأمُرُ بالتأخُّر والإحجام ، فإن لم يصحبه « اليقين » ، قعَد بصاحبه عن المكاسب والمغانم . والله أعلم »[1] .

اليقينُ والحُضُور :

قال ابن القيم في « المدارج » (٢/٣٩٩ - ٤٠٠) : « وقد اختُلف في

(١) مدارج السالكين ٢/٤٠٠ - ٤٠١

تفضيل اليقين على الحضور والحضور على اليقين .

فقيل :الحضور أفضل ؛ لأنه وَطَنات ، واليقين خطرات .

وبعضهم رجَّح اليقين ، وقال:هو غاية الإيمان .

والأول رأى أن اليقين ابتداء الحضور ، فكأنه جعل اليقين ابتداءً ، والحضور دوامًا .

وهذا الخلاف لا يتبيّن ؛ فإن اليقين لا ينفكُّ عن الحضور ، ولا الحضور عن اليقين ، بل في اليقين من زيادة الإيمان ، ومعرفة تفاصيله وشعبه ، وتنزيلها منازلها ؛ ما ليس في الحضور،فهو أكمل منه في هذا الوجه .

وفي الحضور من الجمعيَّة ، وعدم التفْرِقة ، والدخول في الفناء ؛ ما قد ينفكُّ عنه اليقين ، فاليقين أخصُّ بالمعرفة ، والحضور أخصُّ بالإرادة . والله أعلم » .

قال النهرجوري : إذا استكمل العبدُ حقائقَ اليقين ، صار البلاء عنده نعمةً ، والرخاءُ عنده مصيبة .

أخي ، العلم ما استعملك ، واليقين ما حملك . اليقينُ مركبٌ يركبُهُ السائرُ إلى الله ؛ فإنه لولا اليقينُ ما سار ركْبٌ إلى الله ، ولا ثبتَ لأحدٍ قدمٌ في السلوك إلّا به .

أعْلامُ اليقين :

قال ذو النون : « ثلاثة من أعلام اليقين :

قلة مخالطةِ الناس في العشْرة .

وترْك المدْح لهم في العطيَّة .

والتنزُّه عن ذمِّهم عند المنْع .

وثلاثة من أعلامه أيضًا :

النظر إلى الله في كلِّ شيء .
والرجوعُ إليه في كلِّ أمْر .
والاستعانة به في كلِّ حال »[١] .

درجَاتُ اليقين :

قال شيخ الإسلام الهروي ، الأنصاري : « وهو على ثلاث درجات .

الدرجةُ الأولى : علْمُ اليقين :

وهو قَبُول ما ظهر من الحقِّ ، وقبول ما غاب للحقِّ ، والوقوف على ما قام بالحق » .

قال ابن القيِّم في « المدارج » ، (٢/٤٠١ - ٤٠٣) : « ذكَر الشيخُ في هذه الدرجة ثلاثةَ أشياء ، هي متعلّق اليقين وأركانه :

الأول : قبُول ما ظهر من الحقِّ تعالى :

والذي ظهر منه سبحانه : أوامره ونواهيه وشرعه ، ودينه الذي ظهر لنا على ألْسنة رُسُله ، فنتلقَّاه بالقبول والانقياد ، والإذعان والتسليم للربوبية ، والدخول تحت رقِّ العبودية .

الثاني : قبول ما غاب للحقِّ :

وهو الإيمان بالغيب الذي أَخبر به الحقُّ سبحانه على لسان رسله ؛ من أمور المعاد وتفصيله والجنة والنار . وما قبل ذلك ؛ من الصراط والميزان والحساب . وما قبل ذلك ؛ من تشقُّق السماء وانفطارها، وانتثار الكواكب ، ونسْف الجبال ، وطَيِّ العالم ، وما قبل ذلك ؛ من أمور البرزخ ، ونعيمه وعذابه . فقبول هذا

(١) مدارج السالكين ٢/٣٩٨

كله - إيمانًا وتصديقًا وإيقانًا - هو اليقين ، بحيث لا يخالج القلبَ فيه شبهةٌ ولا شك ، ولا تناسٍ ولا غفلةٌ عنه ؛ فإنه إنْ لم يُهلِكْ يقينه أفسده وأضعفه .

الثالث : الوقوف على ما قام بالحقِّ سبحانه :

من أسمائه وصفاته وأفعاله : وهو علْم التوحيد ، الذي أساسه : إثبات الأسماء والصفات ، وضدُّه : التعطيل والنفي والتجَهُّم . فهذا التوحيد يقابله التعطيل .

وأما التوحيد القصدي الإرادي ، الذي هو إخلاص العمل لله ، وعبادته وحده : فيقابله الشِّرْك . والتعطيلُ شرٌّ من الشرك ؛ فإن المعطِّل جاحِد للذات أو لكمالها . وهو جحدٌ لحقيقة الإلهية ؛ فإن ذاتًا لا تسمع ولا تُبصر ، ولا تتكلم ولا ترضى ، ولا تغضب ولا تفعل شيئًا ، وليست داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة ، ولا مجانبة له ولا مباينة له ، ولا مجاورة ولا مجاوزةً ، ولا فوق العرش ولا تحت العرش ، ولا خلفه ولا أمامه ، ولا عن يمينه ولا عن يساره - سواءٌ هي والعدم .

والمشرك مُقِرٌّ بالله وصفاته ، لكنْ عَبدَ معه غيرَه ، فهو خير من المعطِّل للذات والصفات .

فاليقين هو الوقوف على ما قام بالحقِّ ؛ من أسمائه وصفاته ، ونعوت كماله ، وتوحيده . وهذه الثلاثة أشرف علوم الخلائق : علم الأمْر والنهي ، وعلم الأسماء والصفات والتوحيد ، وعلم المعاد واليوم الآخر . والله أعلم » .

قال شيخ الإسلام الهروي :

« **الدرجة الثانية : عَيْنُ اليقين :**

وهو المُغني بالاستدلال عن الاستدلال ، وعن الخبر بالعِيان ، وخرَق الشُّهودُ حجابَ العلْم » .

قال ابن القيم : « الفرق بين علْم اليقين وعيْن اليقين كالفرق بين الخبر الصادق والعيان . وحقُّ اليقين فوق هذا .

وقد مثَّلتُ المراتب الثلاثةَ بمَن أخبرَك: أنَّ عنده عسلًا، وأنت لا تشكُّ في صِدْقه ، ثم أراك إيَّاه ، فازددتَ يقينًا ، ثم ذُقْتَ منه . فالأول : علْم اليقين ، والثاني : عيْن اليقين ، والثالث : حقُّ اليقين .

فعلْمُنا الآنَ بالجنة والنار : علْم يقين . فإذا أُزلفتِ الجنة في الموقف للمتقين وشاهدها الخلائق ، وبُرِّزت الجحيم للغاوين وعاينها الخلائق ، فذلك عين اليقين . فإذا أُدخل أهل الجنةِ الجنةَ ، وأهلُ النارِ النارَ ؛ فذلك حينئذ حقُّ اليقين .

قوله : « هو المغني بالاستدلال عن الاستدلال » : يريد بالاستدلال : الإدراك والشهود ؛ يعني : صاحبه قد استغنى به عن طلب الدليل . فإنه إنما يطلب الدليل ليحصل له العلم بالمدلول ، فإذا كان المدلول مشاهَدًا له ، وقد أدركه بكشْفه ، فأي حاجة به إلى الاستدلال ؟!

وهذا معنى : « الاستغناء عن الخبَر بالعِيان » .

وأما قوله : « وخرَق الشُّهودُ حجابَ العلْم » : فيريد به : أنَّ المعارف التي تحصل لصاحب هذه الدرجة ، هي من الشهود الخارق لحجاب العلم ؛ فإن العلم حجابٌ عن الشهود . ففي هذه الدرجة يرتفع الحجاب ويُفضي إلى المعلوم ، بحيث يُكافِح بصيرتَه وقلبَه مكافحةً » .

قال شيخ الإسلام الهروي :

« **الدرجة الثالثة : حَقُّ اليَقين** :

وهو إسفار صُبْح الكشف ، ثم الخلاص من كُلْفة اليقين ، ثم الفناء في حقِّ اليقين » .

قال ابن القيم في المدارج ، (٢/٤٠٤ - ٤٠٦) « اعلمْ أنَّ هذه الدرجة لا تُنال في هذا العالَم إلَّا للرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؛ فإن نبينا ﷺ رأى بعينه الجنة والنار ، وموسى عليه السلام سمِعَ كلامَ الله - منه - إليه بلا واسطة ، وكلَّمه تكليمًا ، وتجلَّى للجبل وموسى ينظر ، فجعله دَكًّا هشيمًا .

نعم ، يحصل لنا حقُّ اليقين من مرتبة ، وهي ذوْق ما أخبر به الرسول ﷺ من حقائق الإيمان ، المتعلِّقة بالقلوب وأعمالها ؛ فإن القلب إذا باشرها وذاقها صارت في حقِّه حقَّ يقينٍ .

وأما في أمور الآخرة والمعاد ، ورؤية الله جهرةً عِيانًا ، وسماع كلامه حقيقة بلا واسطة ، فحظُّ المؤمن منه في هذه الدار : الإيمان وعلم اليقين . وحقُّ اليقين يتأَخَّر إلى وقت اللقاء .

ولكنْ لمَّا كان السالك عنده ينتهي إلى الفناء ، ويتحقَّق شهود الحقيقة ، ويصل إلى عين الجمع ، قال : « حقُّ اليقين : هو إسفار صبح الكشْف » .

يعني: تحقُّقه وثبوته، وغَلَبة نوره على ظلْمة ليل الحجاب ، فينتقل من طوْر العلم إلى الاستغراق في الشهود ، بالفناء عن الرسم بالكلية .

وقوله : « ثم الخلاص من كُلْفة اليقين » : يعني أنَّ اليقين له حقوق يجبُ على صاحبه أن يُؤدِّيها ويقوم بها ، ويتحمَّل كُلَفها ومشاقَّها . فإذا فني في التوحيد ، حصل له أمور أخرى رفيعة عالية جدًّا ، يصير فيها محمولاً بعد أن كان حاملًا ، وطائرًا بعد أن كان سائرًا ، فتزول عنه كُلْفة حمل تلك الحقوق ، بل يبقى له كالنفس وكالماء للسمك . وهذا أمْرٌ التحاكُم فيه إلى الذوق والإحساس[1] . فلا تسرعْ إلى إنكاره .

(١) قال الشيخ حامد الفقي : « بشرط أن يكون خاضعًا كل الخضوع لهدي رسول الله ﷺ ، وجاريًا على هدي رسالته متحريًا الاقتداء به وبأصحابه على عِلْم وبصيرة ، فليس كلّ ذوْق وإحساس . فما وقع مَن وقع في الهاوية إلَّا بتحكيمِ الذوْق والإحساس » .

وتأمَلْ حال ذلك الصحابي[١] الذي أخذ تمْراتِه ، وقعد يأكلها على حاجة وجوع وفاقة إليها ، فلمَّا عايَن سُوقَ الشهادة قامتْ ، ألقى قُوتَه من يده ، وقال: «إنها لَحياة طويلة، إن بقيتُ حتى آكل هذه التمرات». وألقاها من يده، وقاتل حتى قُتِل ، وكذلك أحوال الصحابة رضي الله عنهم ، كانت مطابقة لما أشار إليه .

لكنْ بقيتْ نكتة عظيمة ، وهي موضع السجْدة ، وهي أنَّ فناءَهم لم يكن في توحيد الربوبية ، وشهودِ الحقيقة التي يشير إليها أرباب الفناء ، بل في توحيد الإلهية ، ففنوا بحبِّه تعالى عن حبِّ ما سواه ، وبمراده منهم عن مرادهم وحظوظهم ، فلم يكونوا عاملين على فناء ، ولا إلى استغراق في الشهود ؛ بحيث يفْنُون به عن مراد محبوبهم منهم ، بل قد فنوا بمراده عن مرادهم ؛ فهم أهل بقاء في فناء ، وفرْق في جمْع ، وكثرة في وَحدة ، وحقيقة كونية في حقيقة دينية .

هُم القومُ لا قوم إلَّا هُمُ ... ولولاهُمُ ما اهتدينا السبيلَا

فنسبة أحوال مَن بعدَهم - الصحيحة الكاملة - إلى أحوالهم ، كنسبة ما يَرْشَح من الظرف والقِرْبة إلى ما في داخلها .

وأما الطريق المنحرفة الفاسدة : فسبيل غير سبيلهم ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

الغِنَى هو اليقين :

اجتمع حُذيفة المرعشي وسليمان الخوَّاص ، ويوسف بن أسباط ، فتذاكروا الفقر والغِنَى، وسليمان ساكت، فقال بعضُهم: الغنيُّ من كان له بيت يُكِنُّه ، وثوب يستره ، وسدَاد من عيش يكفُّه عن فضول الدنيا . وقال بعضهم : الغنيُّ مَن لم يحتَجْ إلى الناس . فقيل لسليمان : ما تقول أنت يا أبا أيوب ؟ فبكى ، ثم قال : رأيتُ جوامع الغِنَى في التوكُّل ، ورأيتُ جوامع الشرِّ من

(١) الصحابي هو عُمير بن الحمام ، في بدر.

القنوط ، والغنيُّ حقُّ الغني : من أسكن الله قلبَه مِن غناه يقينًا ، ومن معرفته توكُّلًا ، ومن عطاياه وقسْمه رضًا ، فذاك الغنيُّ حقُّ الغني ، وإن أمسىٰ طاويًا وأصبح مُعوِزًا . فبكى القوم جميعًا من كلامه .

أَمثلةٌ عَطِرةٌ علىٰ عُلُوِّ الِهمَّة في اليقينِ والثقةِ باللهِ :

يزخر التاريخ بأمثلة عَطِرة على عُلُو الهِمَّة في اليقين والثقة بالله، نُوردها على عُجالة :

نوحٌ عليهِ السَّلام :

قال تعالى : ﴿ **واتلُ عليهِمْ نبأَ نوحٍ إذْ قالَ لقومِهِ يا قوم إنْ كانَ كبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآياتِ الله فعلىٰ الله توكَّلتُ فأجمعُوا أمْرَكم وشركاءَكم ثمَّ لا يكنْ أمرُكُم عليكمْ غُمَّةً ثمَّ اقضوا إليَّ ولا تُنظرون** ﴾ [يونس : ٧١] .

بعد الصبر الجميل والعَناء الكريم ، والإنذار الطويل والتذكير الطويل ، وبعد التكذيب الطويل ، كانت حلْقة التحدِّي الأخير ، وهو تحدٍّ صريحٌ مثير ، ليسَ غرورًا ، وليس كذلك تهوُّرًا ، وليس انتحارًا ، إنما هو تحدِّي القوة الحقيقية الكبرىٰ للقوىٰ الهزيلة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان .

لقد كان مع نوح : الإيمانُ واليقينُ الذي يتضاءل أمامه الكثرة ، ويعجز أمامه التدبير . لقد كان معه الله الذي لا يدع أولياءَه لأولياء الشيطان .

وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله .. وإنه لَينبغي لهم أن تمتلئ قلوبُهم بالثقة حتى تفيض ، وإن لهم أن يتوكَّلوا على الله وحده في وجه الطاغوت أيًّا كان . ثم تكون الغلبة للمؤمنين . هذه سنة الله في الأرض ، وهذا وعده لأوليائه فيها ، فإذا طال الطريق على العُصْبة المؤمنة مرَّة ، فيجب أن تعلم أن هذا هو الطريق ، وألا تستعجل وعد الله حتى يجيء ، وهي ماضية في الطريق .. والله لا يخدع أولياءه - سبحانه - ولا يعجز عن نصرهم بقوته ، ولا يسلِّمهم كذلك لأعدائه ، ولكنه يعلِّمهم ويدربهم ويزوِّدهم بزادِ الطريق .

هودٌ عليهِ السلام :

يقصُّ الله مَقالة قومه له وردَّه عليهم : ﴿ **قالوا يا هودُ ما جئتَنا ببيِّنةٍ وما نحنُ بتاركي آلهتِنا عن قولِكَ وما نحنُ لكَ بمؤمنين إن نقولُ إلّا اعتراك بعضُ آلهتِنا بسُوءٍ قال إني أُشهدُ اللهَ واشهدوا أني بريءٌ ممَّا تشرِكون من دُونِهِ فكيدوني جميعًا ثمَّ لا تُنظرون إني توكَّلتُ على اللهِ ربِّي وربِّكمْ ما مِن دابَّةٍ إلَّا هو آخذٌ بناصيتِها إنَّ ربّي على صراطٍ مستقيم** ﴾ [هود : ٥٣ - ٥٦].هذه ثقة الإيمان ويقينُه واطمئنانه ، وهذه عِزَّة الإيمان واستعلاؤه .

إنَّ الإنسان لَيدهَشُ لرجلٍ فردٍ يواجه قومًا غِلاظًا شدادًا حمقى ، يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أنَّ هذه المعبودات الزائفة تمَسُّ رجلًا فيهذي ، ويروا في الدعوة إلى الله الواحد هَذَيانًا من أثرِ المسِّ !! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة ، فيسفه عقيدَتهم ويقرعهم عليها ويؤنِّبهم ؛ ثم يُهيج ضراوتهم بالتحدي ، ولا يطلب مهْلة ليستعدَّ استعدادهم ، ولا يدعهم يتريَّثون فيفثأ غضبهم !! ولكن الدهشة تزول حين يتدبَّر العامِلَ والسببَ.. إنه اليقين والثقة.. اليقين الذي يَغمرُ القلب ، والثقة بوعده ، واليقين الذي يخالط القلب ، فإذا وعْدُ الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشكُّ فيها لحظة، وحاضر واقع تتملّاه العين والقلب ... ويبلغ الغاية من اليقين بقوله : ﴿ **إنَّ ربي على صراطٍ مستقيم** ﴾ .

خليلُ الرحمٰن إبراهيم ﷺ : أُنموذجٌ عَطِرٌ وعالٍ لليقين بالله :

وأيُّ موقف من مواقف الخليل لم يكن عُلُوَّ همة في اليقين ؟! بل والله إنه اليقين الذي يمشي على الرِّجْل ، وإنْ شئتَ فقلْ : كان خلُقُه اليقين في محاجَّته لقومه : ﴿ **وحاجَّهُ قومُه قالَ أتحاجُّونِّي في اللهِ وقد هدانِ ولا أخافُ ما تُشركونَ به إلا أنْ يشاءَ ربي شيئًا وسِعَ ربِّي كلَّ شيءٍ عِلمًا أفلا تتذكَّرون وكيف أخافُ ما أشركتمْ ولا تخافون أنكم أشركتم باللهِ ما لمْ ينزِّل بهِ عليكمْ سلطانًا فأيُّ الفريقَيْن أحقُّ بالأمْنِ إنْ كنتمْ تعلمون الذين آمنوا ولمْ يَلبِسوا إيمانَهمْ بظلمٍ أولئكَ**

لهُمُ الأمنُ وهمْ مهتدون ﴾ [الأنعام : ٨٠ - ٨٢] .

وهكذا واجه إبراهيمُ - الذي مِلْؤه اليقين، الذي يُحسُّ بعناية الله له ونعمه عليه في قلبه وعقله ، وفي الوجود كلِّه مِن حوله - قُوى الشّرِّ . كيف يخاف مَن عنده هذا اليقين ؟! كيف يخاف مَن وجد الله ؟ وماذا يخاف ؟! ومَن ذا يخاف ؟!

وقوله لقومه : ﴿ **أفرأيتمْ ما كنتمْ تعبدونَ أنتمْ وآباؤكُمُ الأقدمونَ فإنهم عدوٌّ لي إلا ربّ العالمين الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يُطعمني ويسقين وإذا مرضتُ فهو يشفين والذي يُميتني ثم يُحيين والذي أطمعُ أنْ يغفر لي خطيئتي يومَ الدين** ﴾ [الشعراء : ٧٥ - ٨٢] .

يجاهر بعدائه لآلهتهم ، ثم يُثني على ربِّه ، ويأخذ في صفته ، وصلته به في كلِّ حالٍ وفي كلِّ حين ، فنجد اليقين كلّ اليقين ، والقربى الوثيقة ، والصلة النديَّة ، والشعور بقدرة الله وآلائه في كلِّ حركة ونأمة ، وفي كلِّ حاجة وغاية . ونستشعر من صفة إبراهيم لربه ، أنه يعيش بكيانه كلِّه مع ربه ، وأنه يتطلع إليه في ثقة ، ويتوجه إليه في حبٍّ .. يقين يملأ على إبراهيمَ قلبَه ومشاعره وجوارحه .. واستسلام مطلَق في طمأنينةٍ وراحةٍ ويقين .

وقوله لقومه : ﴿ **وقالَ إنَّما اتخذتُمْ من دُون الله أوثانًا مودة بينكم في الحياةِ الدنيا ثمَّ يومَ القيامةِ يكفُرُ بعضُكمْ ببعضٍ ويلعنُ بعضُكمْ بعضًا ومأواكمُ النارُ وما لكمْ مِن ناصرين** ﴾ ، [العنكبوت : ٢٥] .

ويبدو هذا اليقين في هذه الآيات : ﴿ **وتاللهِ لأَكيدَنَّ أصنامَكُمْ بعدَ أنْ تولُّوا مُدْبرينَ * فجعَلَهُمْ جُذاذًا إلَّا كبيرًا لهم لَعلَّهمْ إليهِ يَرجعون** ﴾ ، [الأنبياء : ٥٧ - ٥٨] .

ثم استهزاؤه بأوثانهم يدلّ على يقينه بربِّه : ﴿ **قالوا ءَأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم قالَ بلْ فعلَهُ كبيرُهم هذا فاسْألوهم إنْ كانوا ينطقون** ﴾ ، [الأنبياء : ٦٢ - ٦٣] .

ويتجلّى الموقف الأكبر ليقينه وتوكُّله وثقته على ربِّه ، حينما يُلقونه في النيران ؛ يبدو له جبريل ويقول له : ألك حاجة ؟ فيلقاه : أما إليك فلا . ثم يردِّد نشيده العُلوي : « حَسبنا الله ونعم الوكيل » .. كل موقف من مواقف الخليل ملؤه اليقين والثقة والتوكُّل ... إلقاء طفله الرضيع وزوجه في البريَّة .. همُّه بذبْح ولده .. فلله درُّه ! وصلوات ربي وسلامه عليه .

كليمُ الله موسىٰ ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿ **فَلمَّا ترآءا الجمعان قالَ أصحابُ موسى إنَّا لَمُدرَكُون * قال كلَّا إنَّ معيَ ربي سَيَهْدين** ﴾ ، [الشعراء : ٦١ - ٦٢] .

دلائل الحال كلها : أنْ لا مفرَّ والبحرُ أمامَهم والعدوُّ خلفَهُم ، وبلغ الكرْب مداه ، وإنْ هي إلا دقائقُ تمرُّ ثمَّ يهجم الموت ولا مناصَ ولا مُعينَ ، ولكنَّ موسى الذي تلقَّى الوحي من ربِّه ، لا يشكُّ لحظة،ومِلْءُ قلبه الثقة بربه واليقين بعوْنه ، والتأكُّد من النجاة ، وإن كان لا يدري كيف تكون ، فهي لا بدَّ كائنة ، والله هو الذي يوجِّهه ويرعاه . ﴿ **كلَّا** ﴾ : في شِدَّة وتوكيد ، كلَّا لن نكون مُدْرَكين . كلَّا لن نكون هالكين . كلّا لن نكون مفتونين . كلّا لن نكون ضائعين : ﴿ **كلَّا إن معيَ ربي سيهدين** ﴾ بهذا الجزم والتأكيد واليقين .

وفي اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرْب ، وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون .

رسولُ الله ﷺ القمَّة في عُلُوِّ الهمَّة :

ومَن كرسولِ الله ﷺ ، حينما يَشتدُّ الكرْب يبدو يقينُه مثالًا يُحتذىٰ ... ولا كرْب أشدُّ من ساعة الهجرة ؛ قال تعالى : ﴿ **إلَّا تنصروه فقدْ نصره الله إذْ أخرجه الذين كفروا ثانيَ اثنَيْنِ إذ هما في الغار إذْ يقولُ لصاحبِهِ لا تحزن إنَّ الله معنا فأنزل الله سكينتهُ عليه وأيَّده بجنود لم تروْها وجعَلَ كلمة الذين كفروا السُّفْلَى وكلمةُ الله هي العليا والله عزيز حكيم** ﴾ [التوبة : ٤٠] .

يقول الصِّدِّيق وهو مَنْ هو : لو أن أحدهم نظر إلى قدمَيْه لَأبصَرَنا ، والرسول ﷺ يهدِّئُ من روعِهِ ويُطَمْئِنُ من قلبه ، فيقول له : « يا أبا بكر ما ظنك باثنَيْن الله ثالثهما ؟! » .

وفي أُحُدٍ لمَّا انكشف صفُّ المسلمين في نهاية المعركة ، يَصيح أبو سفيان : « اعلُ هُبَل » . ويأمر الرسول صحابته أن يُجيبوه : « الله أعلى وأجلّ » . فيصيح أبو سفيان :« لنا العُزّى ولا عُزّى لكم » . ويأمر الرسول ﷺ صحابته أن يجيبوه : « الله موْلانا ولا موْلى لكم » .

وفي حُنين يقول : « أنا النبيُّ لا كَذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

ويُسطَرُ في القرآن الكريم اليقينُ العظيم لرسولنا ﷺ ﴿ ... **قل ادعوا شركاءَكم ثم كِيدُونِ فلا تنظرون * إنَّ وليِّيَ الله الذي نزَّلَ الكتابَ وهَو يتولَّى الصالحين** ﴾ ، [الأعراف : ١٩٤ - ١٩٥] .

تحدَّى بها رسول الله ﷺ المشركين في زمانه وآلهتهم المُدَّعاة ، في لهجة الواثق المطمئن إلى السند الذي يرْتكن إليه، ويحتمي به من كيدهم جميعًا، وإنها لَكلمةُ صاحبِ الدعوة إلى الله ، بعد رسول الله ﷺ ، في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ زمان .

إنه لا بدَّ لصاحب الدعوة إلى الله أن يتجرَّد من أسناد الأرض ، وأن يستهينَ كذلك بأسناد الأرض .

صاحب الدعوة إلى الله يرتكن إلى الله ، فما هذه الأسناد الأخرى إذن ؟! وماذا تساوي في حسِّه ؟! حتى لو قدَرَتْ على أذاه ؟! إنما تقدر على أذاه بإذن ربِّه الذي يتولَّاه ، لا عجزًا من ربِّه ولا تخلِّيًا منه سبحانه عن نصرة أوليائه .. إنما ابتلاء لعباده الصالحين للتربية والتمحيص .

« إن صاحب الدعوة إلى الله في كلِّ زمان وفي كل مكان ، لن يبلغ شيئًا إلَّا بمثل هذه الثقة ، وإلّا بمثل هذه العزيمة ، وإلَّا بمثل ذلك اليقين ... ومهما أسفر

الباطل من تعدٍّ ، وأطلق على الدعاة تهديده ، وبغى في وجه كلمة الحقِّ الهادئة ، وعرْبَد في التعبير والتفكير ... ينبغي على الدعاة أن يَمضوا في الطريق ، وأن يحملوا الواجب المُلْقَى على عاتقهم »(١) .

وانظرْ إلى يقينه ﷺ بربِّه ، بعد أن جرَى له ما يَشيب لذكْره الوِلْدان في الطائف حين يقول لملك الجبال : « بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم مَن يعبد الله لا يشرك به شيئًا » . فهل بعد هذا اليقين يقين ؟!

سَحَرةُ فرْعونَ ويقينُهم العَالي الغالي :

قال تعالى : ﴿ **فأُلقِيَ السَحَرةُ ساجدينَ * قالوا آمنَّا بربِّ العالمين * ربِّ موسى وهارون * قال ءامنتمْ لهُ قبلَ أنْ آذنَ لكمْ إنهُ لكبيرُكُمُ الذي علَّمَكُمُ السِّحْرَ فلَسَوْف تعلمون لَأُقطِّعنَّ أيديَكمْ وأرجلَكمْ من خلافٍ ولَأُصلبنَّكمْ أجمعين * قالوا لا ضيْرَ إنَّا إلى ربنا مُنقلِبون * إنَّا نطمَعُ أن يغفرَ لنا ربُّنا خطايانا أنْ كنَّا أوَّلَ المؤمنين** ﴾ [الشعراء : ٤٦ - ٥١] .

إنها كلمة الفئة المؤمنة التي رأتِ النور وملأ اليقين قلبها ، كلمة القلب الذي وجدَ الله فلم يعُدْ يَحْفل ما يفقد بعد هذا الوجدان ، القلب الذي اتصل بالله فذاقَ طعْمَ العزَّة ، فلم يعد يحفل بالطغيان ، القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمُّه من أمْر هذه الدنيا قليل ولا كثير ... لا ضيْر في تقطيع الأيدي والأرجُل من خِلاف .. لا ضير في التعذيب والتصليب ، لا ضير في الموت والاستشهاد.. ﴿ **لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ .. وليكنْ في هذه الأرض ما يكون .

يا لله !! يا لَروعة الإيمان !! إذْ يشرق في الضمائر، وإذْ يفيض على الأرواح، وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس ، وإذ يرتفع بسُلالة الطين إلى أعلى عِلِّيِّين ، وإذْ يملأ القلوب بالغِنَى والذّخر والوَفر ، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد . يا لجلال المشهد ويا للروعة الغامرة !!

---

(١) طريق الدعوة في ظلال القرآن لأحمد فايز .

وقال تعالى في الأعراف : ﴿ **وأُلقِيَ السَّحَرَةُ ساجدين قالوا آمنَّا بربِّ العالمين ربِّ موسى وهارون** ﴾ ، [الأعراف : ١٢٠ - ١٢٢] . إنها صوْلة الحقِّ واليقين في الضمائر ، ونور الحقِّ في المشاعر ، ولَمْسَة الحقِّ للقلوب المهيَّأة لتلقِّي الحقِّ والنور واليقين . تحوّل السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق ، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين . ولكنَّ الطواغيت المتجبِّرين لا يدركون كيف يتسرّب النور إلى قلوب البشر ، ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان ، ولا كيف تَلمَسُها حرارة اليقين ، فما كان من فرعون إلَّا أن قال : ﴿**آمنتمْ له قبلَ أنْ آذن لكمْ**﴾ !! كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق ، أو يستأذنوه في أن ترتعش وجداناتهم، أو يستأذنوه في أن تُشرق أرواحهم !! أو كأنما كان عليهم أن يدفعوا اليقين وهو ينبت في الأعماق ، أو يطمسوا الإيمان وهو يترقرق من الأغوار ، أو أن يحجبوا النور وهو ينبعث من شِعاب اليقين !!

ولكنه الطاغوت جاهل غبيٌّ مطموس ، وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبِّر مغرور .

ولكن هيهات ؛ فقد جاء اليقينُ قلوبَ السحَرَة ، وتفتَّحتْ لهذه القلوب آفاقٌ مشرقة وضيئة ، لا تبالي أن تنظر بعدها إلى الأرض وما بها من عَرَض زائل ، ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافهٍ .

إن النفس البشرية حين تشِفُّ وترِقُّ باليقين ، وحين تستعلن فيها حقيقة الإيمان ؛ تستعلي على قوىٰ الأرض ، وتستهين ببأسِ الطغاة ، وتنتصر فيها العقيدة على الحياة ، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم . إنها لا تقف لتسأل ماذا ستأخذ وماذا ستدع ؟ ماذا ستقبض وماذا ستدفع ؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب ؟ وماذا ستلقىٰ في الطريق من صِعابٍ وأشواك وتضحيات ؟ لأن الأفق المشرق الوضيّ أمامها هناك ، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق .

إنها لمسَة اليقين في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون ، وتعدُّ

القربى منه مغنمًا يتسابق إليه المتسابقون ، فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة ، وترخّص مُلْكه وزُخْرُفَه وجاهَهُ وسلطانه ؛ ﴿ **قالوا لن نُؤْثرك على ما جاءنا من البيِّنات والذي فطرنا**﴾؛ فهي علينا أعزُّ وأغلى، وهو- جلّ شأنه- أجلُّ وأعلى: ﴿ **فاقض ما أنتَ قاضٍ إنما تقضي هذهِ الحياةَ الدنيا إنَّا آمنَّا بربِّنا لِيغفرَ لنا خطايانا وما أكرهتَنا عليه من السِّحْر والله خيرٌ وأبقى** ﴾ [طه : ٧٢ - ٧٣] ؛ خيرٌ قسمةً وجوارًا ، وأبقى مغنمًا وجزاءً .

﴿ **قالوا إنا إلى ربِّنا منقلبونَ وما تنقمُ منَّا إلّا أنْ آمنَّا بآياتِ ربِّنا لمَّا جاءتْنا ربَّنا أفرِغْ علينا صبْرًا وتوفَّنا مسلمين** ﴾ . [الأعراف : ١٢٥ - ١٢٦] . إنه اليقين الذي لا يفزَعُ ولا يتزعزع ، كما أنه لا يخضع ولا يخنع ، اليقين الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها ، ويستيقن من الرجعة إلى ربِّه فيطمئن إلى جواره .

وهزأت القلوب الموقنة بتهديد الطغيان الجائر ، وواجهتْه بكلمة الإيمان القوية ، وباستعلاء الإيمان الواثق ، وبتحذير الإيمان الناصح ، وبرجاء الإيمان العميق .

ويقف الطغيان عاجزًا أمام اليقين ، وماذا يملك الطغيان إذا رغبتِ القلوب في جوار الله ؟! وماذا يملك الجبروت إذا اعتصمتِ القلوب بالله ؟! وماذا يملك السلطان إذا رغبتِ القلوب عمَّا يملك السلطان ؟!

ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلانًا لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض ، وعلى الطمع في المثوبة والخوف من السلطان . وما يملك القلب البشريُّ أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلّا في ظلال اليقين .

إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية ، هذا الذي كان بين فرعون ومَلَئِهِ ، والمؤمنين من السَّحَرة السابقين .

إنه موقفٌ حاسمٌ في تاريخ البشرية ؛ بانتصار العقيدة على الحياة ، وانتصار العزيمةِ على الألم ، وانتصار الإنسان على الشيطان .

إنه موقفٌ حاسمٌ في تاريخ البشرية بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية ، فما الحرية إلَّا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبِّرين وطغيان الطغاة ، ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب ، فقد وُلِدتِ الحرية الحقيقيَّة في هذه القلوب .

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان إفلاس المادية ؛ فهذه القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوْز ، وتمنَّى بالقُرْب من السلطان ، هي ذاتها التي تستعلي على فرعون ، وتستهين بالتهديد والوعيد ، وتُقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتصليب ؛ وما تغيَّر في حياتها شيء ، ولا تغيَّر من حولها شيء ، إنما وقع الحقُّ واليقين في القلوب واستقرَّ وثبت ، وتسمَّع الضميرُ أصداء الهداية ، وتلقَّت البصيرة إشراقاتِ النور ، فرفعتِ الإنسانَ من عالَمِ الواقع إلى الآفاق التي لم يكن يطمحُ إليها الخيال .

ويذهب التهديد ، ويتلاشىٰ الوعيد ، ويمضي الإيمان في طريقه ، لا يتلفَّتُ ولا يتردَّد ولا يحيد . ويُقدِم أهلُ الإيمان على الموت مستهينين ؛ ليقينهم بأنهم هم المؤمنون بربِّ العالمين ، وأنَّ عدوَّهم على غير دينهم ، يُنكر ربوبية ربِّ العالمين . وما كان أن يمضي المؤمنون في طريق الدعوة إلى رب العالمين على ما ينتظرهم من التعذيب والتنكيل ؛ إلَّا بمثل هذا اليقين بشقَّيْه : أنهم هم المؤمنون وأن أعداءهم هم الكافرون ، وأنهم إنما يحاربونهم على الدين ، ولا ينقمون منهم إلا هذا الدين .

فلله ما أروعه من مشهد نعجز عن القول فيه !! وتعجز البشرية !! ولا يصوِّره بصدْقٍ إلَّا القرآن الكريم !!

نماذجُ مِنْ الجيلِ السامِق الذي تَربَّى بالقرآن ، وصُنِع على عَيْنِ النبي ﷺ :

ابن مسعود رضي الله عنه :

تناوله المشركون بالأذىٰ ، لأنه أسمعهم القرآن في ناديهم إلى جوار الكعبة ،

حتى تركوه وهو يترنَّح لا يصلب قامته ، فكان يقول بعد هذا الأذى المنكر الفاجِر الذي ناله : « والله ما كانوا أهونَ عليَّ منهم حينذاك » !! .

كان يستيقن أنَّ الذي يحادُّ الله مغلوبٌ هيِّنٌ على الله ، فينبغي أن يكون مَهينًا عند أولياءِ الله .

ابنُ مَظْعُون رضي الله عنه :

وهذا عثمان بن مظعون يردُّ جِوار عُتبة بن ربيعة ، ويضربه المشركون ، وآذوه حتى خسروا عينه ، فدعاه عُتبة إلى جواره ، فقال لعتبة : « لَأَنا في جوارِ مَن هو أعز منك » !! ولمَّا قال له عتبة : « يا ابن أخي ، لقد كانت عينُكَ في غنى عمَّا أصابها » . فقال : « لا والله ، ولَلْأُخرى أحقُّ لما يُصلحُها في سبيل الله » .

كان يعلم أنَّ جوار ربِّه أعزُّ من جوار العبيد ، وكان يستيقن أنَّ ربه لا يتخلَّى عنه ، ولو تركه يُؤذَىٰ في سبيله هذا الأذىٰ ، لترتفع نفسه إلى هذا الأفق العجيب : « لا والله ، ولَلأخرى أحقُّ لِمَا يُصلحها في سبيل الله » .

لقد احتملوا الأذىٰ بثقة في الله لا تتزعزع ، وبعزمةٍ في الله لا تلين .

وللأَنصار يقينٌ أَغْربُ من الخيالِ وأطيبُ من المِسْك :

كان للأنصار يقينٌ كامل ، وثقة سامية بالله ورسوله ﷺ ؛ وخذْ على هذا مثالًا :

في يوم العَقَبة الْتقىٰ رسول الله ﷺ بالوفد الثاني للأنصار ، وكان من أمْرهم كما قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري : « يا معشر الخزرج ، هل تدرون علامَ تُبايعون هذا الرجل ؟ قالوا: نعم ! قال: إنكم تبايعونه على حرْب الأحمر والأسود من الناس ؛ فإن كنتم ترَون أنكم إذا أنهكتْ أموالكُمْ مُصيبة وأشرافكم قتلًا ، أسلمتموه ؟ فمِن الآن ، فهو - والله - إن فعلتم خزيُ الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترَوْن أنكم وافون له بما دعوتموه على نهكة الأموال وقتل الأشراف ،

فخذوه ؛ فهو - والله - خيرُ الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتْل الأشراف » .

وعند الإمام أحمد من حديث بيعة العقبة : « فقلنا - أي الأنصار - : يا رسول الله، نبايعك ؟ قال : « تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومةَ لائمٍ ، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمتُ عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجَكم وأبناءكم ، ولكم الجنة ؟ » . قال: فقمنا إليه فبايعناه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم، فقال: رويدًا يا أهل يثرب ؛ فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل ، إلَّا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ ، وإن إخراجَه اليومَ مفارقةُ العرب كافَّة ، وقتْل خياركم وتعضُّكم السيوف ، فإمَّا أنتم قوم تصبرون على ذلك ؛ وأجركم على الله ، وإمَّا أنتم قوم تخافون مِن أنفسكم جبينةً ، فبيِّنُوا ذلك ؛ فهو أعذر لكم عند الله ، قالوا : أَمِطْ عنَّا يا أسعد ؛ فوالله لا ندع هذه البَيْعة أبدًا ولا نسلبها أبدًا »[1] .

« وهذه امرأة من بني عبد الدار عرفت معنى اليقين والثقة ، فعبَّرت عنها بكلمات بقيتْ تُزينُ صدر التاريخ ، وأصبحت أمانة في عنق كلِّ مسلمة ؛ وذلك عندما أُخبرتْ باستشهاد زوجها وأخيها وأبيها ، قالت : ماذا صنع رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : هو بخير . قالت : كلُّ مصيبة بعدك يا رسول الله جلل[2] »[3] .

---

(١) إسناده حسن: أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي، وقال الحاكم: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي ، وقال ابن كثير : وهذا إسناد جيّد على شرط مسلم . وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٢٢/٧) : رواه أحمد بإسناد حسن .

(٢) جلَل : هينة .

(٣) الرسول القائد : لمحمود شيت خطاب .

وفي هذا الجيلِ السامِق نزلت آياتٌ :

قال تعالى : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول مِن بعد ما أصابَهُمُ القَرْحُ للذينَ أَحسنـوا منهم واتقَـوْا أجرٌ عظيمٌ * الذين قال لهُمُ الناسُ إنَّ الناسَ قـد جمَعُوا لكمْ فاخشوهُمْ فزادهم إيمانًا وقالوا حسبُنا الله ونعْمَ الوكيل * فانقلبُوا بنعمةٍ من الله وفضْلٍ لم يمسَسْهمْ سُوءٌ واتبعوا رضوانَ الله والله ذو فضلٍ عظيمٍ** ﴾ ، [آل عمران : ١٧٢ - ١٧٤] .

لله درُّ هؤلاءِ النفرِ من الصحابة !! دعاهم رسول الله ﷺ إلى الخـروج معه كرَّةً أخرى في « حمراء الأسد » غدَاة المعركة المريرة ، وهم مُثْخَنُون بالجراح ، وهم ناجون بشِقِّ الأنفس من الموت أمسِ في المعركة ، وهم لم ينسوا بعدُ هـوْلَ الدعْكَة ومرارة الهزيمة وشِدَّة الكرْبِ ، وقد فقدوا من أعزَّائهم مَن فقدوا ، فقـلَّ عددهم ، فوق ما هم مُثْخَنون بالجراح ، ولقد دعاهم رسول الله ﷺ ، ودعاهم وحدهم فاستجابوا لدعوته ... لليقين الذي يغمر قلوبَهم ، وليُعْلِموا الدنيا أن هناك عقيدةً هي كلُّ شيء في نفوس أصحابها، ليس لهم من أرب في الدنيا غيرها، وليس لهم من غاية في حياتهم سواها ، عقيدة يعيشون لها وحدها ، فلا يبقَىٰ لهـم في أنفسهم شيء بعدها، ولا يستَبْقون هم لأنفسهم بقيَّة في أنفسهم لا يبذلونها لها ، ولم يكن أقوى في التعبير عن ميلاد هذه الحقيقة ، من خروج هؤلاء الـذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أُصابهم القَرْح ، ومن خروجهم بهذه الصورة الرائعة الناصعة الهائلة ؛ صورة التوكُّل على الله وحده ، واليقين به .

وقال تعالى : ﴿ **ولمَّا رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا هـذا ما وعـدَنا الله ورسولُهُ وصدق الله ورسولهُ وما زادهم إلّا إيمانًا وتسليمًا** ﴾ ، [الأحزاب : ٢٢].

مع الزلزلة ، وزوَغان الأبصار ، وكرْب الأنفاس ؛ صِلَةٌ لا تنقطع بالله، وإدراك لا يضلُّ عن سنن الله ، وثقة لا تتزعزع بثبات هذه السنن ، ويقين لا يخالجه الشكُّ بربِّهم ، وارتباط بالعروة الوثقىٰ يشدُّهم إلى الله ويجدد فيهم الأمل .. يتخـذون

من الزلزال بشيرًا بالنصر ، وكانوا بهذا نموذجًا فريدًا في تاريخ البشرية ، لم يُعرَف له نظير .

الصِّدِّيقُ الأكبرُ رضي الله عنه ويقينُه الكبيرُ يومَ موْتِ رسول الله ﷺ :

مَن شاء أن يرى يقين أبي بكر في أحفل ساعاته ، من شاء أن يرى اليقين العُلْوِيَّ الموصول بقيُّوم السموات والأرض ، فلْيَرَ هذا اليقين يومَ دُعي الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، فأجاب ورحل عن الحياة والأحياء ، يومئذٍ تكشَّف هذا الجوهر ... يقين لا يضعف بل يتفوَّق ، ولا يجزع بل يحتشد ، ولا ينوء تحت وقْع الضربة ، بل ينهض أيِّدًا رشيدًا ثابتًا ليحمل مسئولياته وتبِعاته !!

وقف يقين أبي بكر يومَ وفاة الرسول ﷺ وقفة ما كان يقدر عليها سواه ، يومَ أن قال عمر : « إنَّ رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله مات ، وإنه والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربِّه كما ذهب موسى بن عمران ... والله لَيرجعنَّ رسول الله ، فلَيقطِّعنَّ أيديَ رجال زعموا أنه مات » ... « ألا ، لا أسمع أحدًا يقول : إن رسول الله مات ، إلّا فَلَقْتُ هامَتَهُ بسيفي هذا » .

وأقبل أبو بكر يكلِّم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء ، ودخل على رسول الله ﷺ وهو مسجًّى في ناحية البيت ، عليه بُرْدُ حَبَرَة ، فكشف عن وجهه ثم قبَّله ، وقال : « بأبي أنت وأمي ، طبتَ حيًّا وميِّتًا ، إن الموتة التي كتبها الله عليك قد مِتَّها » . ثم ردَّ الثوب على وجه الرسول ﷺ ، ثم خرج وأقبل على الناس يكلِّمهم ، فلما سمِعوه أقبلوا عليه منصتين ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيُّها الناس ، مَن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومَن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت » . ثم تلا هذه الآية ﴿ **وما محمد إلّا رسول قد خلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُل أفإنْ مات أو قُتِلَ انقلبتُم على أعقابكم ومَن ينقلب على عقبَيْه فلن يضرَّ الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين** ﴾ [آل عمران : ١٤٤] . فوالله لَكأنَّ الناسَ يسمعون هذه الآية لأوَّلِ مرة ... أما عمر فقد وقع على الأرض حين علم من كلمات أبي بكر أنه الموت حقًّا .

وهكذا كان يقين أبي بكر يُشبه عيْنَ الصقْر ، يقع في أقلّ مِن لمْح البصر على كلمة السرِّ التي ستردُّ الهمَمَ المنْسَحِقَةَ تحت وطأة الفاجعة ، إلى وعْيٍ قدير يستقبل تبعاته الجِسَام ، ويَعبُر أزمة الموت بسلام !!

إذن يا خيلَ الله اركبي ... ويارايةَ الله ارتفعي ... ويا حَمَلة هذه الراية قوموا ... انهضوا ... واصلوا رحلة الشمس المشرقة .

لقد فعل يقين أبي بكر في الصحابة ما فعل واستقبلوا الأمر بالعزْم الأَيِّد.. .

ومِن قبلُ قالَها ثابتُ بنُ الدَّحْدَاحَةِ وأنسُ بنُ النضر رضي الله عنهما :

لما نادىٰ الشيطان يومَ أُحُد : « ألا إن محمدًا قد مات » . أُسقِطَ في أيدي نفَر من الصحابة ، فَماذا تمَّ ؟

في « الاستيعاب » (١/١٩٥) ، وعند الواقدي ، عن عبد الله بن عمَّار الخطمي قال : « أقبل ثابت بن الدحْدَاحَة رضي الله عنه يومَ أُحد والمسلمون أوزاع ؛ قد سُقِط في أيديهم ، فجعل يَصيح :يا معشر الأنصار ، إلَّي إلَّي ، أنا ثابت بن الدحداحة ، إن كان محمد ﷺ قد قُتِل ، فإن الله حيٌّ لا يموت ، فقاتِلوا عن دينكم ؛ فإنَّ الله مُظهِركم وناصِرُكُم ، فنهض إليه نَفَرٌ من الأنصار ، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين ، وقد وقفتْ له كتيبةٌ خشناءُ فيها رؤساؤهم : خالد ابن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعِكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الخطاب ، فجعلوا يناوشونهم ، وحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه فأنفذه ، فوقع فيها ، وقُتل مَن كان معه من الأنصار » .

وفي « البداية » ، (٤/٣٤) ، عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخي بني عدي بن النجار ، قال:انتهى أنس بن النضر عمُّ أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله ، في رجالٍ من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم ، وقد ألقوا أيديهم ، فقال : فما يجلسكم ؟ قالوا : قُتِل رسولُ الله ﷺ . قال فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا ، فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ . ثم

استقبل القوم ، فقاتل حتى قُتل .

قال ابن كثير في « تفسيره » (٢/١٠٩) : « قال ابن أبي نجيح ، عن أبيه : أنَّ رجلًا من المهاجرين مر على رجل من الأنصار ، وهو يتشحَّط[1] في دمه ، فقال له : يا فلان ، أشعرتَ أن محمدًا ﷺ قد قُتِل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قُتل فقد بلَّغ ، فقاتِلوا عن دينكم . فنزل : ﴿ **وما محمد إلَّا رسول قد خلتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُل** ﴾ » .

يا سبحان الله الذي أعلى هِمَمَ الصحابة ويقينهم بدينهم ، ودعوتهم الضاربة في جذور الزمن ، العميقة في منابت التاريخ ، المبتدِئة مع البشرية ، تحدو لها بالهدىٰ والسلام مِن مطالع الطريق . وهي أكبر من الداعية وأبقى من الداعية ، وتبقىٰ هي على الأجيال والقرون .

علَّمهم الرسول ووصلَهم مباشرة بالعروة الوثقى ... ويقينهم الكبيرُ أنَّ النبع لم يفجِّره محمد ﷺ ، ولكن جاء فقط لِيُومئ إليه ، ويدعو البشر إلى فَيْض هذا الدين المتدفِّق ، كما أَوْمَأَ إليه من قبله الرسلُ ، ودعوا القافلة إلى الارتواء منه .

اليقينُ السَّامِق لعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه :

عن أبي سعيد ، قال : بينا النبي ﷺ يقسِم ، جاء عبد الله بن ذي الخُوَيْصِرة التميمي ، فقال : اعدل يا رسول الله . فقال : « ويلك !! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ » . قال عمر بن الخطاب : دعني أضرب عنقه . قال : « دعه ؛ فإنَّ له أصحابًا يحقر أحدُكم صلاتَه مع صلاته[2] وصيامه مع صيامِه[2] ، يمرقون من الدين كما يمرُق السهمُ من الرمِيَّةِ ، يُنظر في قُذَذِه فلا يوجد فيه شيء ، ثم يُنظر إلى نصْلِهِ فلا يُوجد فيه شيء ، ثم يُنظر إلى رِصافِه فلا يُوجد فيه شيء ، ثم يُنظر

---

(١) أي يتخبط فيه ويتمرَّغ .

(٢) وفي رواية للبخاري أيضًا:« صلاتهم .. صيامهم » .

في نِضِيِّه فلا يُوجد فيه شيء ، قد سبق الفرْث والدَّمَ . آيتُهم : رجلٌ إحدى يديْه - أو قال : ثدْيَيْه - مثل ثدي المرأة . أو قال : مثل البضعة تَدَرْدَرُ[1] يخرجون على حين فُرقة من الناس » .

قال أبو سعيد : أشهد سمعتُ من النبي ﷺ ، وأشهد أن عليًّا قتلهم وأنا معه ؛ جيءَ بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ قال : فنزلتْ فيه : ﴿ **ومنهمْ مَن يلمزُك في الصدقات** ﴾[2] . رواه البخاري .

وآية الخوارج ، كما جاء في رواية علي عند مسلم : « فيهم رَجُلٌ مُخْدَج اليد أو مودن اليد أو مثدون اليد » .

وفي رواية أخرى عند مسلم لعليٍّ : « وغاية ذلك أن فيهم رجلًا له عَضُد ليس له ذراع ، على رأس عَضُده مثل حَلَمة الثدي عليها شعرات بيض » .

ولما خرجت الخوارج على عليٍّ وكانوا ثمانية آلافٍ من قُرَّاء الناس ، ونزل بحروراء فناظرهم علي ، فرجع منهم أربعة آلاف فيهم عبد الله بن الكواء ، فبعث عليٌّ إلى الآخرين أن يرجعوا فأبوا ، فأرسل إليهم : كونوا حيث شئتم ، وبيننا وبينكم أن لا تسفكوا دمًا حرامًا ، ولا تقطعوا سبيلًا ولا تظلموا أحدًا ، فإن فعلتم نبذتم إليكم الحرب .

قال عبد الله بن شدَّاد : فوالله ما قتلهم حتى قطعوا السبيل ، وسفكوا الدم الحرام ، وذلك بقتلهم عبد الله بن خباب بن الأرت ، وبقروا بطن سُرِّيَّتِهِ .

« وفي « الأوسط » للطبراني : عن جندب بن عبد الله البَجَلي ، قال : لما فارقت الخوارجُ عليًّا ، خرج في طلبهم ، فانتهينا إلى عسكرهم ، فإذا لهم دَوِيٌّ كدويِّ النحل من قراءة القرآن ، وإذا فيهم أصحاب البرانِس . أي الذين كانوا معروفين بالزهد والعبادة . قال : فدخلني من ذلك شِدَّة ، فنزلتُ عن فرسي.

---

(١) تَدَرْدَر : أي تتدردر ، ومعناه تتحرَّك وتذهب وتجيء .

(٢) رواه البخاري في كتاب : « استتابة المرتَدين » باب : مَن ترَك قتال الخوارج للتألف .

وقمتُ أصلي ، فقلتُ : اللهمَّ إنْ كان في قتال هؤلاء القوم لك طاعة فائذنْ لي فيه . فمرَّ بي عليٌّ ، فقال لمَّا حاذاني : تعوَّذْ بالله من الشكِّ يا جندب . فلما جئتُه أقبل رجلٌ على بِرْذَوْنٍ يقول : إنْ كان لك بالقوم حاجة ، فإنهم قد قطعوا النهر . قال : ما قطعوه . ثم جاء آخر كذلك ، ثم جاء آخر كذلك . قال : لا ، ما قطعوه ، ولا يقطعونه ، ولَيقتلنَّ مَن دُونه عهدٌ من الله ورسوله . قلتُ : الله أكبر . ثم ركبنا فسايرته ، فقال لي : سأبعث إليهم رجلًا يقرأ المصحف يدعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيهم ، فلا يُقبل علينا بوجهه حتى يرشقوه بالنبْل ، ولا يقتل منا عشرة ولا ينجو منهم عشرة . قال : فانتهينا إلى القوم ، فأرسل إليهم رجلًا فرماه إنسان ، فأقبل علينا بوجهه فقعد ، وقال عليّ : دونكم القومَ . فما قُتل منَّا عشرة ولا نجا منهم عشرة » .

وفي رواية زيد بن وهب : « فقال عليٌّ : الْتمسوا فيهم المخْرج . فالتمسوه فلم يجدوه ، فقام عليٌّ بنفسه حتى أتى ناسًا قد قُتل بعضُهم على بعضٍ ، قال:أَخِّروهم . فوجده ممَّا يلي الأرض ، فكبَّر ، ثم قال : صدَقَ الله وبلَّغ رسولُهُ » .

وفي رواية عبيد الله بن أبي رافع : « فلمَّا قتلهم عليٌّ قال : انظروا . فنظروا ، فلم يجدوا شيئًا ، فقال : ارجعوا ؛ فوالله ما كُذِبتُ ، ولا كَذبتُ . مرتين أو ثلاثًا ، ثم وجدوه في خَرِبة ، فأتوا به حتى وضعوه بين يديْه » . أخرجها مسلم .

وفي رواية للطبري من طريق زيد بن وهب : « فقال عليٌّ : اطلبوا ذا الثدية . فطلبوه فلم يجدوه ، فقال : ما كُذبتُ ولا كَذبتُ ، اطلبوه . فطلبوه ، فوجدوه في وَهْدةٍ من الأرض ، عليه ناس من القتلى ، فإذا رجل على يده مثل سبلات السِّنَّور ، فكبَّر عليٌّ والناس ، وأعجَبَه ذلك »[1] .

---

(١) فتح الباري ١٢/٣١٠ - ٣١١ .

وفرح الناس حين رأوه واستبشروا ، وذهب عنهم ما كانوا يجـدونه ، ورحمهم الله بيقين عليٍّ .

اليقين الغالي لشيخ الإسلام ابن تيمية ذي القدْر العَالي :

في الليلة التي سبقتْ مناظرتَه للبطائحيَّة وشيوخهم أمام نائب السلطنة ، استخار ربَّه واستعانه واستنصره واستهداه ، قال : « وسلكتُ سبيلَ عباد الله في مثل هذه المسالك ، حتى أُلقي في قلبي أنْ أَدخُل النار عند الحاجة إلى ذلـك ، وأنها تكون بَردًا وسلامًا على مَنِ اتَّبع ملَّةَ الخليل ، وأنها تحرق أشباه الصابئـة ، أهل الخروج عن هذه السبيل ، وبين الصابئة ومَن ضلَّ من العباد المنتسبين إلى هذا الدين ، نسبٌ يعرفه مَن عرف الحقَّ المبين » .

ولمَّا حضر ابن تيمية والرفاعية وشيوخهم أمام نائب السلطان ؛ قال ابن تيمية : « هم يزعمون أن لهم أحوالًا يدخلون بها النار ، وأن أهل الشريعة لا يقدِرون على ذلك ، ويقولون : لنا هذه الأحوال التي يعجزُ عنها أهلُ الشرع ، ليس لهم أن يعترضوا علينا ، بل يُسلم إلينا ما نحن عليه ، سواء وافق الشرعَ أو خالَفَه . وأنا قد استخرتُ الله سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخُلُ أنا وهم ، ومن احترق منا ومنهم فعليه لعنةُ الله ، وكان مغلوبًا ، وذلك بعد أن نغسِلَ جُسومنا بالخلِّ والماء الحارِّ . فقال الأمير : ولِمَ ذاك ؟ قلتُ : لأنهم يَطلُون جُسومَهم بأدوية يصنعونها من دُهن الضفادع ، وباطِنِ قِشْر النارنج ، وحَجَر الطلْق ، وغير ذلك من الحِيَل المعروفة لهم ، وأنا لا أطلي جِلدي بشيء ، فإذا اغتسلتُ أنا وهم بالخلِّ والماء الحارِّ ، بطلتِ الحِيلة وظهر الحق . فاستعظم الأمير هجومي على النار ، وقال : أتفعل ذلك ؟ فقلتُ له : نعم ، قد استخرتُ الله في ذلك ، وأُلقي في قلبي أنْ أفعله ، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداءً ؛ فإن خوارق العادات إنما تكون لأُمة محمد ﷺ المتَّبعين له باطنًا وظاهرًا لحجَّة أو حاجة ؛ فالحجَّة لإقامة دين الله ، والحاجة لما لا بدَّ منه من النصر والرزق ، الذي به يقوم دين الله ، هؤلاء إذا أظهروا ما يسمُّونه إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تُبطل دين الله وشرعه ، وجب علينا أن ننصر الله ورسوله ﷺ ، ونقوم في نصر دين الله وشريعته ، بما نقدر

عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا ، فلنا حينئذ أن نعارض ما يُظهرونه من هذه المخاريق ، بما يؤيّدنا الله به من الآيات ، ولْيُعْلَمْ أن هذا مثل معارضة موسى للسَّحرة ؛ لمَّا أظهروا سِحْرهم أيَّد الله موسى بالعصا التي ابتلعتْ سِحْرَهم . فجعل الأمير يخاطب مَن حضره من الأُمراء على السِّمَاط بذلك ، وفرح بذلك ، فلما حضروا تكلَّم منهم شيخٌ - يقال له : حاتم - بكلامٍ ، مضمونُه طلبُ الصلح والعفو عن الماضي والتوبة ، وإنا مجيبون إلى ما طلب - أي شيخ الإسلام - مِن ترك هذه الأغلال وغيرها من البِدع ، ومُتَّبِعون للشريعة »[(١)] .

ومِسْكُ الخِتام :

قال الإمام أحمد بن عاصم الأنطاكي : « يسيرُ اليقينِ يُخرِج كلَّ الشكِّ من القلب » .

وقال شيخ الإسلام الحافظ محمد بن منصور الطوسي : رأيتُ النبيَّ ﷺ في النوم ، فقلتُ : مُرْني بشيء حتى ألزَمَهُ . قال : « عليك باليقين » .

صيْحَةُ عُمير بن الحَمَامِ رضي الله عنه : منارةٌ مِن مناراتِ اليقينِ بالله :

« فهذا عُمير بن الحمام ؛ لمّا سمع رسول الله ﷺ يقول لأصحابه يوم بدر : « قوموا إلى جنة عرضُها السموات والأرض » ، قال : يا رسول الله ، جنة عرضها السمٰوات والأرض ؟ قال : « نعم » . قال : بخٍ بخٍ . فقال رسول الله : « ما يحملك على قولك : بخٍ بخٍ ؟ » . قال : لا والله يا رسول الله ، إلا رجاءةَ أن أكون من أهلها . قال : « فإنك من أهلها » . فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منهنَّ ، ثم قال : لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه ... إنها لحياةٌ طويلة . قال : فرمىٰ بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قُتِل »[(٢)] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١/٤٤٥ - ٤٧٥ . تقرأ كاملة .

(٢) رواه مسلم .

فهذه صيحة من الأعماق ، نقتبس منها جذوة تُنير الطريق وترسم المعالم ، ثقة بالله ويقينًا به في كلِّ حركة ، وفي كل سَكَنة .

حَيْوةُ بن شُرَيْح :

قال ابن وهب : كان حيوة يأخذ عطاءه في السنة ستين دينارًا ، فلم يطلع إلى منزله حتى يتصدّق بها ، ثم يجيء إلى منزله فيجدها تحت فراشه . وبلغ ذلك ابنَ عمٍّ له فتصدَّق به كلَّه وجاء إلى تحت فراشه فلم يجد شيئًا ، فشكا إلى حَيْوة فقال : أنا أعطيت ربي بيقين وأنت أعطيتَه تجربةً[١] .

محمدُ بنُ إسماعيل البخاري :

وكان هجِّيراه[٢] من الليل إذا أتيتَه في آخر مقدمه من العراق : ﴿ **إنْ ينصرْكمُ الله فلا غالِبَ لكمْ وإنْ يخذلْكُمْ فمنْ ذا الذي ينصرُكُمْ مِن بعده** ﴾[٣] .

عليُّ بن أبي طاهر : الإمام الأوْحدُ ، والثقةُ الحافظ :

لمَّا رحل إلى الشام وكتب الحديث ، جعل كُتُبَه في صندوق وقَيَّرَهُ وركب البحر ، فاضطربتِ السفينة وماجت ، فألقى الصندوق في البحر ثم سكنت السفينة ، فلمَّا خرج منها أقام على الساحل ثلاثًا يدعو الله ، ثم سجد في الليلة الثالثة وقال : إنْ كان طلبي ذلك لوجهك وحبِّ رسولك ، فأغثني بردِّ ذلك . فرفَعَ رأسَه فإذا بالصندوق مُلقى عنده ، فقدم وأقام بُرْهةً ، ثم قصدوه لسماع الحديث ، فامتنع منه . قال : فرأيتُ النبي ﷺ في منامي ومعه عليٌّ رضي الله عنه ، فقال النبي ﷺ : « يا علي ، مَن عامَلَ الله بما عاملك به على شط البحر ؟! لا تمتنعْ من رواية أحاديثي » . قال : فقلتُ : قد تبت إلى الله . فدعا لي وحثَّني على الرواية[٤] .

---

(١) السير ٦/٤٠٤ - ٤٠٦ .

(٢) هِجِّيراه : كلامه ودأبه وشأنه .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٢/٣٩١ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٤/٨٧ - ٨٨ .

أبو عبد الله مردنيش : الزاهد المجاهد ، أبو عبد الله ، محمد الجذامي المغربي :

قال الذهبي : فمن عجيب ما صحَّ عندي من مغازيه - يقول ذلك اليسَع ابن حزْم - أنه أغار يومًا ، فغنم غنيمةً كثيرةً واجتمع عليه من الروم أكثر مِن ألف فارس ، فقال لأصحابه - وكانوا ثلاثمائة فارس - : ما ترون ؟ فقالوا : نشغلهم بترْك الغنيمة . قال : ألم يقل القائل : ﴿ **إن يكنْ منكم عشرون صابرونَ يغلِبُوا مائتين** ﴾ ؟! قال له ابن مورين : يا رئيس ، الله قال هذا . فقال : الله يقول هذا ، وتقعدون عن لقائهم ؟! قال : فثَبَّتُوا ، فهزموا الروم[(١)] .

الشيخُ عبدُ القادر ؛ الشيخُ الإمامُ ، العالمُ الزاهدُ ، شيخُ الإسلامِ الجيلانيُّ :

قال رحمه الله : وتَرِدُ عليّ الأثقال التي لو وُضعتْ على الجبال تفسَّختْ ، فأضع جنبي على الأرض وأقول : إن مع العسر يسرًا ، إن مع العسر يسرًا . ثم أرفع رأسي وقد انفرجت عني[(٢)] .

أبو عثمان الحِيري ؛ الشيخُ الإمام ، شيخُ الإسلام : سعيد بن إسماعيل الحيري :

قال الحاكم : وسمعتُ أبي يقول : لمَّا قَتَلَ أحمد بن عبد الله الخجستاني - الذي استولى على البلاد - الإمامَ حكيان بن الذهلي ، أخذ في الظلم والعسْف ، وأمر بحرْبة رُكزت على رأس المربعة ، وجمَع الأعيانَ وحلَف إن لم يصبُّوا الدراهمَ حتى يغيب رأس الحربة فقد أحلُّوا دماءهم ، فكانوا يقتسمون الغرامة بينهم ، فخُصَّ تاجرٌ بثلاثين ألف درهم ، فلم يكن يقدر إلَّا على ثلاثة آلاف درهم ، فحملها إلى أبي عثمان وقال : قد حلف هذا كما بلغك ، ووالله لا أهتدي إلَّا إلى هذا . قال : تأذن لي أن أفعل فيها ما ينفعك ؟ قال : نعم . ففرَّقها أبو عثمان وقال للتاجر :

---

(١) السير ٢٠/ ٢٣٢ - ٢٣٤ .

(٢) السير ٢٠/٤٣٩ .

امكثْ عندي . فما زال أبو عثمان يتردَّد بين السِّكَّة والمسجد ليلَته حتى أصبحَ ، وأذَّن المؤذِّن ، ثم قال لخادمه : اذهبْ إلى السوق وانظرْ ماذا تسمع . فذهب ورجع ، فقال : لم أر شيئًا . قال : اذهب مرة أخرى . وهو في مناجاته يقول : وحقِّك لا أقمتُ ما لم تفرِّج عن المكروبين . قال : فأتى خادمه الفرغاني يقول : ﴿**وكفى الله المؤمنين القتال**﴾، شُقَّ بطْنُ أحمد بن عبد الله . فأخذ أبو عثمان في الإقامة .

قال الذهبي : بمثل هذا يُعَظَّمُ مشايخ الوقت[(١)] .

وقد مرَّ مثلُها من سفيان الثوري مع أبي جعفر المنصور .

يقول عصام العطَّار : « إذا عرفتم الله صغُر عندكم مَن سواه وما سواه ، بل ذاب في أعينكم وفني في قلوبكم كلُّ ما عداه ، ولم يعُدْ يستأهل الطلب والنصَب إلَّا قربه ورضاه ، وإذا استشعرتم رابطتكم بربِّكم وعونه لكم ، وأيقنتم أنه معكم ، رأيتم أنفسكم أقوى من كلِّ قوى الشيطان والطغيان !! وهكذا يُولد المسلم ولادَةً جديدة ، من عقيدته لا من رحم أمِّه ، وينبعث بمعرفتِهِ بالله وحرارة إيمانه به .. ولقد أحسَّ جند الله المؤمنون المخلصون الذين فرَغوا من أنفسهم ووهبوا حياتهم - كلَّ حياتهم - لربهم ، فلم يتحرَّكوا ولم يقفوا ، ولم يُعطوا ولم يمنعوا ، ولم يُحبُّوا ولم يُبغضوا ، ولم يحاربوا ولم يُسالموا ، إلَّا به وفيه ومن أجله عز وجل ، لقد أحسُّوا أنهم قدَرٌ من قدَرِ الله الغلّاب ، لا تصدُّه ولا تردُّه قوة في الأرض ، إلا أن يشاء الله »[(٢)] .

ولله درُّ سيد قطب حين يقول :

وإنْ طوَّقتْني جيوشُ الظلام ... فإني على ثقة بالصباحِ
وإني على ثقةٍ من طريقي ... إلى الله ربِّ السَّنا والشروقِ
فإن عاقني الشوْقُ أو عقَّني ... فإني أمينٌ لعهدي الوثيقِ

---

(١) السير ١٤/٦٢ - ٦٦ .

(٢) « أزمة روحية » لعصام العطار .

أخـي أخـــذوكَ عـلـى إثْـــرنـا ... وفـوْج على إثْـرِ فـوْجٍ جـديدِ
فـإنْ أنـا مــتُّ فـإني شهيـدٌ ... وأنـتَ ستمضـي بنصـرٍ مجيـدِ
قـد اختـارنـا الله في دعــوتِـهْ ... وإنَّـــا سنمضـي عـلـى سنتــهْ
فمنَّـــا الـذينَ قضــوا نحْبَهـمْ ... ومنَّـــا الحفيــظُ عـلـى ذِمَّتــهْ
أخي فـامـضِ لا تلتفـتْ للوراءْ ... طريقُكَ قـد خضَّبْتُهُ الـدمـاءْ
ولا تلتفـتْ هـاهنـا أوَ هنــاك ... ولا تتطلــعْ لـغيــرِ السمـــاءْ

ولله درُّ القائل الموقن بوعد ربِّه في الدنيا قبل الآخرة :

لا تُهيِّــئْ كفنـي يـا عــاذلـي ... فأنا لي معَ الفجرِ مواثيق وعهدُ

ولله درُّ عبد الرحمن العشماوي وهو يهدِر بها :

تمـوتُ المبـادئ في مهـدِهَــا ... ويبقـى لنـا المبـدأُ الخـالــدُ
مـراكـبُ أهـل الهـوى أُتخِمَـتْ ... نــزولًا ومـرْكِبُنـــا صـاعــدُ
ســوانـــا يـلـــوذ بـعـــرَّافـــةٍ ... وأُسطــورةٍ أصلُهـا فــاســدُ
يُحدِّثنـا الليــلُ عــن نـفســهِ ... وفيــهِ عـلـى نفسِـهِ شـــاهــدُ
إذا عـــدَّدَ النــاسُ أربَـــابَـهُـــمْ ... فنحــنُ لنا ربُّنـا الـواحِـدُ(١)

ولله درُّ الدكتور النحوي وهو يقول في ملحمته :

سيجمعُ الغرباءَ الساحُ في لهَبٍ ... وتهتدي فطنةُ الألبابِ بالحِكَمِ
وعِـزَّةُ النهْجِ في أفيـاءِ مـوهبةٍ ... منَ التُّقى وجلال المْوكبِ العَمَمِ(٢)
سندفعُ الخطوَ فوقَ الدرْب وَقَدْ لظًى ... ولفحةُ الشوْقِ إعصارُ الفتي القَـرِمِ
على محـاجِـرنا أطيـافُ ملحمةٍ ... وبين أكبـادِنا أشـواق كُـلِّ كَمي
ومـن سَـواعِـدِنا هـدَّارةٌ عَصَفَـتْ ... هُوجُ الأعاصيرِ جازتْ ظلْمة التُّخَمِ

---

(١) قصيدة : « موقف » ، من ديوان : شموخ في زمن الانكسار ، لعبد الرحمن العشماوي ، ص ٥ - مكتبة الأديب .

(٢) العمم : الاجتماع والكثرة ، والتامُّ من كلِّ شيء ، ومن الرجال : الذي يعمُّ خيره .

وفي مبـاسِمِنـا إشـراقـةٌ طـلَعَـتْ   تُعيدُ من عبقـريِّ اللحن والنغَـمِ
الله أكبرُ دارُ الخلدِ فـامضِ لهَـا   معَ الميامينِ مِن غُرٍّ ومِنْ بُهَمِ (١)

ولله درُّ وليد الأعظمي وهو يقول :

واهتفْ بهمْ : أنا من جُنودِ محمدٍ   بـايعتُـه فيمـا يُـريحُ ويُتعِـبُ
راياتُهـا خفَّـاقـةٌ وسيُـوفُهـا   صفَّـاقـةٌ وجنـودُهـا لا تُـغْلَـبُ
واهتـزتِ الـدنيـا لصـوتِ محمَّـدٍ   الله أكبـرُ شـرقُهـا والمغـرِبُ

نعـم يـا أخـي :

يقيـنٌ تنـوءُ بـهِ الـراسيـاتُ   ويـكـبـرُ عـنْ قبضـةِ المجـرم
وإخـوتي .... يـا منـاطَ العُـلا   ويا صيحةَ الحـقِّ مـلْءَ الفـمِ
ويـا جـرحَ آمـالنـا الغـاليـات   تـوهَّجَ كـالشَّـررِ المضْـرَمِ
ويـا صحـوة الفكْـرِ .... أرواحُنا   بغيـرِ البطـولاتِ لـمْ تحْلُـمِ
يُجلجـلُ فينـا نـداءُ السمـاءِ   ويجـأرُ كـالقـدَرِ المُبْـرَمِ
يُحيِّي الرجـالَ ذوي العَزمَـاتِ   ويُهـدي الضِّيـاء لعيْـنِ العَمِـي
يُحيلُ المشـاعـرَ نـارًا ونـورًا   يشـقُّ سُجوفَ الدُّجَىٰ المظلِـمِ
ويشـرحُ للـدهرِ معنىٰ الثبـاتِ   على الحقِّ في نهجِـهِ القيِّـمِ (٢)

ولله درُّه حيـن يقـول :

المـوقنـونَ الصـادقـونَ مشـاعـلٌ   خَلَلَ الظـلامِ تُسَلْسِلُ الأضـواءَا

---

(١) البُهَم : جمع بهْمة ؛ يُقال : فلان بهْمة من البُهم ، أي الشجاع الذي لا يُهتدى مِن أين يُؤتى .

من قصيدة : الخاتمة ، من ديوان : ملحمة الغرباء . للدكتور عدنان النحوي ص١٥١ - ١٥٢ ، دار النحوي للنشر والتوزيع .

(٢) التحدي ؛ من ديوان : نداء الحق ، لأحمد محمد الصديق ص ٨٣ ، ٨٤ - دار الضيـاء للنشـر والتـوزيع .

سَيُنَشِّئُون علـى المحجَّة فِتيةً ... ورجالَ صدقٍ في الورىٰ أُمناءَا
هـي دعـوةٌ لله أقبلَ فجـرُهَـا ... بالنـورِ يخفِقُ مُشـرقـًا وَضَّـاءا
ضربتْ بأعماقِ النفوس جُذورُهَا ... وسمَتْ منـارًا للهـدىٰ ولـواءَا
وسيُزهِرُ الحلمُ الذي نصبو لَهُ ... أرضًا تُعانِقُ في الـوجودِ سَمَـاءَا
يا للعزائمِ حينَ تنهضُ حُرَّةً ... وتحطِّـم النَّيْـرَ البغيـضَ هَبَـاءَا
تمشي عَلى هام النجوم عزيزةً ... تُـذْكِي النفـوسَ تـوثُّبًا ومَضَـاءَا

ولله درُّه حين يقول :

يا أيها النسرُ المشوق إلى الـذُّرى ... يطـوي الفضـاءَ بلهفـةٍ وحَنَـانِ
قُـمْ وانتفضْ يا ابنَ العلاءِ مبشِّرًا ... بتفتُّـحِ النِّسْـرين والـرَّيْحـانِ
ولتركبِ الريحَ الغضوبَ يهيجُها ... قـدرٌ ويُطلِقُهـا بغيـر عِنـانِ
واحملْ إلى الآفاقِ مُمَزَّعةً رايةٍ ... سقطتْ وتـأبىٰ ذِلَّـةَ القيعـانِ
مَغْمـوسةً بجراحِنا منسوجةً ... بيقيننـا بالصـدقِ والإيمـانِ
مِن عمْقِ هاتيكَ الجراح شموسُنا ... وُلِدَتْ وتُسقىٰ بالطَّهور القـاني
وتفتَّقتْ خُضْرُ البراعِمِ في الضُّحىٰ ... وتـألَّقتْ شُهُبًـا بكـلِّ مكـانِ
قـد أُبرمـتْ بيقينهـا وثباتهـا ... عهْدًا يـدومُ غـدًا مـعَ الرحمٰنِ
ولهـا معَ الأمجـادِ وعـدٌ صـادقٌ ... قـد سُطِّـرتْ بُشْراه في القـرآنِ
وإذا الـرجـالُ على العقيـدةِ بايَعُوا ... يا صدقَ أحلامٍ لهمْ وأماني(١)

ولله درُّ القائل :

يـا أُمَّتي وأقـولُ اليـومَ في ثقـةٍ ... إنـي اليقيـنُ فـلا شيءٌ يُـزعْـزِعُني
إني العقيـدةُ والإقـدامُ فَيْصَلُهـا ... وليـسَ غيـرُ نـداءِ الله يُسحـرني
أذودُ عنهـا وفيهـا عـلَّ خـاتمتي ... تكـونُ في ظلِّهـا يـومًا فتقبَلني

---

(١) من قصيدة : « عودة النسر » . بتصرف ، من ديوان : قادمون مع الفجر ، لأحمد محمد الصدِّيق ص ٦٦ – ٦٨ . دار الضياء ، الأردن .

فالليـلُ يعقبُـهُ فجـرٌ ومِئْـذَنَـةٌ « واللهُ أكبرُ » نِبْراسٌ على الزمنِ
الهوْلُ في خطوي والنور في دربـي وأظلُّ أسمعُ صوتَ الحقِّ في أُذني

وختامًا : أبدًا نمضي باليقين معَ الله :

مـعَ الله طـوْعًا مـعَ الله سَـوْقًـا هــداة دعــاة إلـى ما أمرْ
مـعَ الله والفيـضُ مــن قُـدْسِهِ يُنيـر بصيـرتنا والبَصَــرْ
ويـدفـعُ أعمــاقَ إيمــاننَـا فــرارًا إليــهِ ونِعْـم المَفَـرّْ
فنُبصــرُهُ جـلَّ مــن خـالـقٍ بـآلائـهِ البـارعـاتِ الغُـرَرْ
ونحيـا بــه ثــمَّ نحيَــا لـهُ ونحيا ونحيا ونحيا الدَّهَـرْ[1]

* * *

(١) « مـع الله » من ديـوان : صفحات ونفحات ، لعمر بهاء الدين الأميري ص٥٤ - ٥٥ .